

الإنسان

القيمة الاجتماعية العليا

بقلم سيف حوري

على ان هذا الفكر الذي هو صفة الانسان لا يمارس افعاله فيما بين الإنسان والطبيعة فقط ، وإنما يفعل كذلك فيما يخص الانسان نفسه . فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي يتخذ من ذاته موضوعاً لفكره ، فيفكر بما يعمل ، ثم يفكر باعماله أخيراً هي أم شر ، جمال أم قبح ؟ ثم يفكر فوق ذلك بنوع فكره أحق هو أم باطل ، خطأ أم صواب ؟ وبعبارة أخرى ان الشخصية الانسانية وحدها قابلة للاخلاق والحقائق ، والسلوك الانساني وحده مطبق لأن يُقوّم ميزان من الاخلاق والحقائق ، إذ لم يُسمع مثلاً - الا في الحرافات - بان تورّع ذئب عن افتراس طفل او ساورته رحمة أو أحس بان ذلك ظلم ، او قيل عنه انه خطيء وندم .

وما دامت الشخصية الانسانية وحدها تقبل الاخلاق والحقائق ، وما دام السلوك الانساني وحده يطبق ان يقوّم ميزان من الاخلاق والحقائق ، فالإنسان ، إذآ ، مستطيع كما كان يقول المعتزلة او حرّ الارادة كما نقول نحن ، قد أعطي ان يختار في افعاله وفقاً لدافع او رادع من فكر أو عقل أو ضمير . فهو ليس كالنار حتم عليها ان تحرق ، ولا كالحبوان اعماله عبارة عن رد فعل لغريزة ، ولا كالآلة تدور كما تدار .

ومتى أعطي الانسان الاستطاعة والاختيارات مكلفاً مسؤولاً ، ونما فيه هذا الشعور الذي نسميه حس الواجب ، وهذا الميل الذي نسميه ذوق الجمال ، وهذا الطموح الذي نسميه طلب الأصلاح والارقي وتدعو ثمرته التطور والتقدم .

لكننا ، بعد هذا كله ، نبيه عن الصواب اذا تصورنا ان نظرنا في الانسان يستقيم ونحن ناظرون اليه من ثلاثة أوجه كل وجه منها على انفراد . كلا ، لا يصح نظرنا الى الانسان ، ما لم نتناوله على حقيقته كائناً واحداً ، « مادة » الانسان الحيوان

وبعد ، فماذا نشاء يا قارئ ؟ إنني من ادر كتهم حرفة التعليم . لا اقولها شكوى ولكن اقولها اعتذاراً اليك عما سأشغلك به من الاوليات المعلومة والبسائط المفهومة .

خطر لي بالأمس ان اوضح لثفسي تلك الحصاص التي تميز الانسان قوةً وفعلاً ، كما يقول الفلاسفة ، او ممكناً وواقعاً كما نقول نحن . فوجدت ان لا بد ، إذآ ، من النظر في الانسان من ثلاثة أوجه : اولاً - من حيث هو حيوان ، وثانياً - من حيث هو جماعة ، وثالثاً - من حيث هو فرد .

فاما من حيث هو حيوان ، فالإنسان لا يزيد على انه كائن يلدّ ويبالغ ، ويفر من الألم ويلتمس اللذة ، ويطلب المأكل والمشرب ، وينصرف الى عمل النسل ، ويصارع من اجل البقاء او يجتال لذلك احتيالياً .

واما من حيث هو جماعة ، فانه لا يعدو ان يكون جزءاً من مجتمع قد توثقت الوشائج بين وجوده ووجود ذلك المجتمع وما يلحق به من ارض هي الوطن ومن قومية ودولة .

واما من حيث هو فرد ، فالإنسان يستقل بشخصية خاصة . ولتلك الشخصية صفة الاستمرار ، لا تنقطع كشخصية الحيوان ، عند حد الهنيهة الحاضرة ولكنها تتصل بالماضي وتمتد الى المستقبل .

ولها صفة الفكر ايضاً . الفكر الذي به ادرك الانسان انه كائن ملاحم بالطبيعة الا انه مُعْاير لها ، والطبيعة إن لم تكن له عدواً فأنها ليست باكثر احتفالا به منها ببعوضة او دودة . فلزمه ، من هنا ، ان يتعلم ما يضبط حركاتها ومظاهرها من نواميس ، ثم لزمه ان لا يكتفي بتعلم نواميسها بل ان يشور عليها ويفتح الاقفال عن اسرارها ويأخذ ، من طريق الآلات والصناعات ، بأعنة قواها ويصرفها في خدمته .

فيه هي مادة الانسان جماعةً ، ومادة الانسان فرداً ، والمادة القابلة لأن تستقلّ بشخصية خاصة تتجلى فيها الامتيازات التي قدمنا ذكرها .

« ليس بالخبز وحده يحيا الانسان » ، قال الناصري ، وهو إنما يريد ان يعلو بالانسان فوق الحيوان . على ان قوله لا يعني قط ان الانسان يحيا بلا خبز . وجميع الذين ساؤوا ان يجرموا الانسان خبزاً يحيا به انما تركوا الكائن البشري حيواناً تستبد به شهوة المعدة وغريزة حفظ الرمتق . ولذلك لم تكن الاستهانة يوماً بلقمة الانسان رفعةً له فوق الماديات ، كما يُزعم ، وسمواً به الى قهم الروح ، وإنما كانت في الواقع شدةً له الى الدرك الاسفل من البهيمية ، الموقوف همها على امسك الحياة .

و « الانسان مدني بالطبع » و « سياسي بالطبع » ، هكذا قال الفلاسفة منذ أقدم الازمنة . فلا تم إنسانية الانسان الا في مجتمع ، مجتمع صالح . ولا سبيل لانسان وحده الى استكمال انسانيته . بل ربما لم يكن قد استقل انسان بوجوده إلا في القصة مثل « حي بن يقظان » لابن طفيل ، و « روبنسوت كروزو » لدانيال ديفو . وما دام المجتمع تلحق به قوميات ودُول ، فينتج من كون الانسان مدنياً بالطبع ، وسياسياً بالطبع ، أن له الحق في قوميته التي اعطاه إياها التاريخ ، وله الحق في ان تكون دولته القومية مستقلة تامة السيادة ، وبالتالي وطنه مستقلاً تاماً السيادة ، وله الحق في ان تعيش دولته ووطنه بمساواة وسلام مع باقي الدول والاطوان ، وله الحق في ان يصون خصائصه القومية من كل تدويب قسري لها في بوتقة قومية تدعي لذاتها الافضلية إما بحجة الاستعمار سافراً او بحجة الدربة والحكمة في القيادة .

والانسان ايضاً فرد ، وله ذاته التي يرجع اليها ويخلو بها . وحين تحقق فرديته وذاتيته تحقق شخصيته وكل ما هي قابلة له من الامتيازات الانسانية . وان مجتمعاً لا يجعل لأعضائه ابواباً للتعبير عن فرديتهم ، ولا يتيح لهم ان يعيشوا أوقاتاً من حياتهم فيما بينهم وبين انفسهم ، ولا يترك لهم سبباً للاختيار والتغيير بين باب وآخر من ابواب التعبير عن فرديتهم ، لا يكون مجتمعاً بل نظاماً قطعانياً يراد فرضه على البشر ، ولا عبوة بكل الاسمنت الذي يرتفع فيه مباني شاهقة وكل الحديد الذي يصنع فيه آلات ضخمة .

وبعد ، ألم أعتذر اليك سلفاً يا قارئني عما سأشغلك به من هذه الاوليات المعلومة والبسائط المفهومة ؟ بقي ان تستطيع معي صبراً حتى نرى أين ينتهي بنا هذا كله .

عهدنا بالانسان انه هو القيمة العليا في الوجود . وفي عصر كعصرنا ينصرف فيه الفكر شطر المجتمع ، يجب علينا ان نزيد ان الانسان هو القيمة الاجتماعية العليا في الوجود . ومذ كان الانسان جماعة - كما اسلفنا - فحق للفكر ان ينصرف هذا الانصراف كله شطر المجتمع ، وان يرى في الاصلاح الاجتماعي والثورة الاجتماعية ، مفتاحاً لحلّ المشاكل ، لكن شرط ان لا ينسى ان حلها إنما هو ضروري ومَشود لأنه يُخدم الانسان . يُخدمه من جميع اوجهه: من حيث هو جماعة لها الحق في قوميتها وفي استقلال دولتها ووطنها ، ومن حيث هو في الوقت نفسه فرد يستقل بشخصية خاصة ، ومن حيث هو كذلك شريك الحيوان في بعض حاجات لا انفكاك لها عن وجوده . وإنما نصر على ان المراد بحل المشاكل إنما هو خدمة الانسان ، لأن هنا خطراً أن يتوهم متوهم ان حل المشاكل إنما يكون خدمة النظريات وان الحركات الاجتماعية إنما هي تجارب بالشعوب كتجارب الأطباء بالأرانب ، لبرهان ان هذا الحزب أو ذاك على حق ، وأن هذا النظام أو ذاك هو الأفضل .

أجل ، ان الانسان هو القيمة الاجتماعية العليا ، هو الغاية القصوى ، لا النظريات ولا الانظمة ، فان هذه تشتق قيمتها من الانسان ، وليس يشتق الانسان قيمته منها .

وقيمة النظريات والانظمة هي بمقدار ما تُخدم الانسان من جميع اوجهه في آن واحد ، فلا تُخدمه من وجه على حساب آخر .

*

والى هذا المقياس يجب ان تُردّ النظريات والانظمة دائماً ، لكي لا تُهرّب المفاسد والمظالم وراء ما تنشره على العيون من سُجُب مواراة بمزيّف الأضواء والألوان ، ولكي لا تعمي الحقائق بما تثيره في النفوس المعطشة من نشوة الأوهام . وان من النظريات والانظمة ما يثير نشوات وهمية دونها عمل الأفيون !

رئيف فوري